[٣]

نحن والشهيد

« شروح قديمة على أشعار حديثة »

احسان عباس

هو الآن يرحل عنّـا
ويسـكن يافـا
ويعرفها حجرا حجرا

هو : ضمير يدل على الغائب الحاضر أبدا ، لانه يشير الى « الشهيد » . والشهيد لفظة تعني : « الحي » ، أي هو الذي يقهر الموت من خلال الموت . ليس هذا تحايلا مجازيا . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم ... » ؛ و « يافا » هذه التي يريد ان يسكنها — وربما اخترنا في هذا المقام « أن يسكن اليها » — هي احدى الحور التي أقامت تنتظره طويلا مع سائر السرب الجميل : القدس وعكا وحيفا وصفد وطبريا و... عشرات ، آلاف ترفرف فوقها أرواح الشهداء في صور طيور خضر بلون أوراق الليمون والبرتقال والعنب ؛ وروحه الآن في صورة طير أخضر او ابيض تتملّى مواطن السحر والجمال او ملاعب الطفولة في يافا ، وذلك ما يرمز اليه الشاعر بقوله « ويعرفها حجرا حجرا » ، فان الحجر نموذج للجمال حين يكون رمزا للبيت والارض ، للوطن ، « للحورية » التي طال انتظارها . أما نحن في لفظة « عنّا » فسوف يتم تحديدها من بعد .

هو الآن يخرج منّا
كما تخرج الارض من ليلة ماطرة
وينهمر الدم منـه
وينهمر الحبر منّـا

تأمل اصرار الشاعر على استعمال لفظة « الآن » ، ليدل على مدى ارتباطنا نحن (هل نقول نحن الاحياء — الموتى ؟) بالزمن ، بينما يخرج الشهيد من محدودية الزمن الى المطلق ، يخرج من بيننا (أترى هذا الرحيل عنا والخروج منّا يعني الخلاص الذي كان ينشده ؟!) وقد غسلته الشهادة من علائق الزمان والمكان كما تغسل الليلة الماطرة الارض . ذلك هو المعنى الذي اراده الشاعر دون ريب ، والا فان الشهيد — في الغالب — لا يغسل على الحقيقة ، وانما يظل مخلّقا بدمائه ، مكفنا بثوبه الذي كان يلبسه . قال أحد الابطال الذين حاربوا في القادسية : « انا لاقو العدو — ان شاء الله — غدا ، وانا مستشهدون ؛ لا تغسلوا عنا دماءنا ، ولا نكفن الا في ثوب كان علينا » . وسمع عكرمة يقول : « يصلى على الشهيد ولا يغسل ، فان الله قد طيبه » .

ومع ذلك فان هذه الصورة : أعني « خروج الارض من ليلة ماطرة » صورة محيرة ؛ من هو الارض ومن هو الليلة الماطرة ؟ وكيف يتم الانفصال ؟ لكن يجب الا يستوقفنا